عنوان الليسانس: لسانيات عامّة.
السداسي الخامس. السنة الثالثة ليسانس
المادة: علم الدلالة 1
وحدة التعليم الأساسية. المعامل: 02. الرصيد: 04
نوع الدرس: محاضرة
إعداد الأستاذة: د. غنية تومي

المحاضرة 04: الدلالة عند المفسّرين

مهاد:

إن الهدف الأسمَى للمفسّرين هو تفسير كلام الله عزَّ وجلَّ، دون زيادة أو نقصان والأخذ في الحسبان أقصى درجات الحيطة والحذر لئلاَّ يُحَمِّلُوا مَتنَهُ ما لا يحمل، أو يوجّهوا نصوصه وجهةً غير ما أرادها الله تعالى، فيقعوا في المحرَّم والمحذور بل والشرك الذي نهانا سبحانه وتعالى عن الوقوع فيه فكان أن فعَّلوا أدوات عدّة في سبيل فهمه، و وفاءً وإجلالاً للنّص القرآنيّ.

لم يكتف المفسِّرون وهُم بِصَدَدِ تفسير القرآن الكريم بالتركيز على سُوَرِهِ وآياته فقط، بل راموا كذلك ترجيح دلالةٍ، أو تقوية معنى لفظةٍ ما أصابها تأرجُح أو تفاوت في دلالتها، مستعينين في ذلك بوسائل لحيازة الدلالة، ومنها توسّلهم (السِّياق) الحافّ بالآية المراد تفسيرها؛ فقد حفظ لنا التّاريخ وقائع عن محاولات الصَّحابة والتَّابعين والمفسِّرين بعدهم تفسير كلام الله عزَّ وجلَّ بكلِّ ما أُوتُوا مِن قدرةٍ تعكس حرصَهم الشَّديد لِفهم المعاني واستنباط الحمولات الدلالية، بِمَا يتواءم وطبيعة النّص دون تكلُّفٍ أو تساهُلٍ في ذلك.

إنّ من أقدم المحاولات التفسيرية ما يُعرَف بمسائل نافع بن الأزرق **لعبد الله بن عباس** رضي الله عنهما (ت68هـ) الذي كان له في ذلك منهجٌ خاصٌ؛ إذ حاوّل ابن عباس تفسير ألفاظٍ من غريب القرآن الكريم كان قد سأله عنها نافع الخارجيّ، وطلب منه تدعيم شرحه بشواهد تؤكِّد ما ذهب إليه من معاني، و كانت شواهده من الشعر الجاهليّ؛ فقد رُوِيَ أنه قال:"إذا خَفِيَ عليكم شيء من القرآن فابتغوه في الشّعر، فإنّه ديوان العرب "[1]، وكان في هذه المسائل وغيرها يبحث عن دلالة المفردة الغريبة من القرآن من خلال ورودها في شعر العرب، أي فَسَّر من خلال الاستعمال، ومن مسائل نافع لابن عباس، سؤاله له عن لفظة (الوسيلة) في قوله تعالى:((وَابتَغُوا إِلَيهِ الوَسِيلَةَ))[المائدة:35]، فقال ابن عبّاس:" الوسيلة: الحاجة، قال: وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم، أما سمعت عنترة وهو يقول :

إنَّ الرِّجَالَ لَهُم إِلَيكَ وَسِيلَةٌ # إن يَأخُذُوكِ تَكَحَّلِي وَتَخَضَّبِي "[2]

إنَّ الصحابة ثمّ التابعين رضوان الله تعالى عليهم هم أوائل المفسّرين، و كانوا يفسّرون كلام الله تعالى اعتمادًا على ما سمعوه وشاهدوه وعاينوه في حضرة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وكانوا في أبعد غاية احتراز عن القول في نزول الآية إدراكًا منهم للدّور الخطير الذي تلعبه معرفة أسباب النّزول التي تردّ الخطاب إلى سياقه الطبيعيّ، فتوجِدُ للمتلقيّ عنصر المعايشة وبالتّالي الإلمام بكلّ ماله تأثير في القصد، وممّا وصل إلينا بهذا الخصوص ما رُوِيَ عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أنَّه خلا ذات يوم " فجعل يحدّث نفسه: كيف تختلف

هذه الأمّة ونبيّها واحد، وقِبلَتُها واحدة؟!، فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين، إنّا أُنزِلَ علينا القرآن فقرأناه، وعلمنا فِيمَ نَزل، وإنَّه سيكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن ولا يدرون فِيمَ نَزَلَ، فيكون لهم فيه رأيٌ، فإذا كان لهم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا. فزجره عمر وانتهره، فانصرف ابن عباس، ونظر عمر فيما قال فعرفه، فأرسل إليه، فقال: أعد عليَّ ما قلت، فأعاده عليه، فعرف عمر قوله وأعجبه، وأنَّ ما قاله صحيح في الاعتبار..."[3] .

ونستنتج من هذا أنَّ ابن عباس قد فطن إلى أنه لنصل إلى دلالة الآية وجبت معرفةِ أسباب نزولها، والسورة كذلك، وأنَّ الفارق الزّمنيّ بين عهده وعهد أقوام بعده سيجعل تلك المعرفة لازمة لئلاَّ يقع الاختلاف والافتراق، فَهُمْ عاصَروا نزول القرآن الكريم لذلك فهموه ووعوه، فكيف الحال بمَنْ جاء بعدهم من أجيال غاب عنها هذا العنصر الأساسيّ .

-**القرطبيّ** (ت671هـ) الذي تطرَّق في مواضع كثيرة جدًا لا سبيل لحصرها إلى الدلالة ولوازمُ البحث عنها فشرح من خلالها، ورَجَّحَ وفَضَّلَ عبرها دلالةً على أخرى لأنها أكثرُ مواءمة وهكذا، ومن تلك العبارات:" والتأويل الأوّل أَوْلى يدلُّ عليه قوله تعالى"[4]، و"... إنَّ سياقَ الكلامِ يدُلُّ على ذلك، أَلاَ ترى أنَّ بعده "[5]، و" ألاَ ترى أنَّ قبله قوله تعالى"[6]، وغيرها كثير، أي إنه توسّل التركيب بمكوناته السابقة واللاحقة وهو يرصد الدلالة المعينة.

كان يعتمد في تفسيره لبعض الآيات على بذكر عادة العرب، ليقينه أنَّ القرآن الكريم بلغتها نزل وعلى أساسٍ من عاداتها ومعتقداتها المشتركة خاطبها الله سبحانه و تعالى؛ إمَّا لمنع وتحريم بعض العادات أو لتصحيحها وإتمام النّقص فيها، مثلا في قوله تعالى:((وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا))[7] ، إذ فسّرها نقلاً عن أبي عبّاس بأنَّ الله أحلَّ الأكل والشّرب ما لَم يكن فيه إسراف أو مَخْيَلَة [8]، ثمّ قال: "وقد كانت العرب تمتدح بقلّة الأكل، وتذمّ بكثرته[9] كما حفل تفسيره بنماذج عديدة أظهرت اعتقاده بما لعُنْصُرَيْ المُشاهَدة والمُعايَنة أو الحضور مِن دورٍ كبيرٍ، فالإخبار والسَّماع ليسا كفيلَيْن بنقل الواقعة كاملةً،" وذلك أنَّ النّفوس مستشرفة إلى رؤية ما أُخبِرَت به، ولهذا قال عليه السَّلام:((ليس الخبر كالمعايَنة)) "[10].

- **ابن كثير** (ت 774 هـ) وهو بصدد تحديد دلالة بعينها، أو ترجيح واحدة على أخرى وفق ما يقتضيه السِّياق كان يستعمل السِّياق اللّغويّ في العديد من القضايا التفسيرية، فمن لوازم تعيين الدلالة قوله على سبيل المثال:" وما دلَّ عليه السِّياق ..."[11]، و" الأظهر من السِّياق أنّ المراد ...."[12]، و" يدلّ عليه السِّياق بعده..."[13]، ومن العبارات المصاحبة لعملية الترجيح عادة قوله:" وهذا القول ضعيف بعيد عن المراد، والصّحيح الأوّل لدلالة السِّياق عليه ..."[14]، و" القول الأوّل أَوْلَى لدلالة السِّياق عليه ..."[15].

إنَّ القرآنَ الكريمَ نصٌّ بلغ من الإعجاز والسّعة والشّمول والإحاطة والثّراء اللّغويّ والمعرفيّ ما جعل آليات قراءته وفهمه متعدّدة، وكان من ضمن تلك الآليات والوسائل الأداة الإجرائيّة (السِّياق) بمفهومه الواسع، والذي لعب دورًا واضحًا في إضاءة النّص القرآنيّ، وقد كان كثير من المفسّرين يعتمدون في البحث عن دلالة بعض الألفاظ في السِّياق القرآنيّ على عادات العرب وأعرافها، " ومن هنا بات ضروريًّا على دارس القرآن الاطّلاع على النّظام الاجتماعيّ والعقليّ العربيّ القديم؛ لأنَّ القرآن، مع عالميته وخلوده وصلاحيته الدّائمة، قد راعى البّيئة التي نزل فيها في بعض أحكامه وفي نسيجه اللّغويّ، وفي انفتاحه المعرفيّ

على الوعي البشريّ في عصره وفي كلّ العصور؛ فهذا **الطبريّ** (ت310هـ) على سبيل المثال في تأويله قوله تعالى: ((ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا))[16] يفسّر(نكسوها) بقوله : " ومعنى نكسوها نلبسها ونواريها به كما يواري جسدَ الإنسانِ كسوتُه التي يلبسها، وكذلك تفعل العرب، تجعل كلّ شيء غطّى شيئًا وواراه لباسًا له وكسوة"[17]، فعلى أساس تسمية العرب، وهي معرفة لغويّة مشتركة، فسّر الطّبريّ واطمأنَّ لسلامة ما ذ هب إليه، وهذا صنيعه في مواطن كثيرة من تفسيره، لا يأخذ بشيء ولا ينحو منحى في شرحه إلاّ ما كانت العرب تعرفه وتلتقي في فهمه والنّظر فيه، خاصّةً ما وافق لسانها وتماشى ولغتها السّائدة، أي إنّه كان يعدّ العرب بعرفها وعاداتها اللّغويّة مرجعًا لا مناص من النّهل منه، والاستئناس به في أغلب القضايا التي طرحها وهو بصدد تفسير كلام الله عزّ وجلّ .

ومن المفسّرين مَن يجعل أسباب النّزول خطوةً إجرائيّة لازمةً ، وعنصرًا لا غنى عنه من عناصر منهجه فى تفسيره، من مثل **أبي حيّان الأندلسيّ** (ت745هـ) في" تفسيرالبحرالمحيط "،إذ نوّه فى مقدّمة تفسيره ـ في خضمِّ ذكره لمنهجيته في تفسيرآي وسُورالقرآن الكريم ـ إلى أنَّه بعد بحثه مفردات الآية لفظةً لفظةً قبل التّركيب ومعانيها المعجميّة ، ثمّ ما يناسبها من معنى في سياق الآية ، وهي التي كما رأينا قبلاً خطوات تُماثل تلك التي نادى بها أصحاب النظريّة السِّياقية الحديثة، أوالاشتغال بمستويات التّحليل اللّغويّ بقرائنه المقاليّة ، يعرّج بعدها لتفسيرالآية"... ذاكرًا سبب نزولها، إذا كان لها سبب ، ونسقها ومناسبتها وارتباطها بما قبلها(...) ناقلاً أقاويل السّلف والخلف في فهم معانيها..."[18].

---

[1] - السيوطي، الإتقان في علوم القرآن : 13/2 ، و ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن ،293/1.
2- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن :243/1.
[3] - الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة : 3 / 348 .
6- القرطبيّ : تفسير القرطبيّ د. أحمد عبد العليم البردوني ، ط2 ، دار الشعب ، القاهرة ، 1372هـ ، 26/4.
7 - نفسه : 190/6.
8- نفسه : 208/18.
[7] - الأعراف [31] .
[8] - ينظر : تفسير القرطبيّ ،ص191/7.
[9] - نفسه : 7 / 193 .
[10] - تفسير القرطبيّ ، 3 / 297 – 298 .
1- ابن كثير : تفسير ابن كثير ،(د ـ ط) ، دار الفكر ، بيروت ،1401 هـ ، 100/1.
[12]- نفسه : 330/3.
[13] - نفسه : 272/4.
[14] - نفسه :419/4.
5- نفسه: 518/4.
[16] - البقرة [259] .
[17] - الطّبريّ : تفسير الطّبريّ ، 3 / 45 .
[18] - أبو حيان الأندلسيّ : تفسير البحر المحيط ، 1 / 4- 5 .